مقاربة تحليليّة تداولية للخطبة الحربية
وقعة صفين مثالاً

Pragmanalytic Approach to the Military Sermon
(Suffin Battle as a Nonpareil)

م. د. أحمد حسين حيال

Lectur. Dr. Ahamed Hussein Heial

مقاربة تحليليّة تداولية للخطبة الحربية وقعة صفين مثالاً

Pragmanalytic Approach to the Military Sermon (Suffin Battle as a Nonpareil)

م. د. أحمد حسين حيال
وزارة التربية/ مديرية تربية بغداد الرصافة / ٣

Lectur. Dr. Ahamed Hussein Heial
Education Directorate of Baghdad / Rasafa 3

almdrs74@gmail. com

تاريخ الاستلام: ٢٣/ ١/ ٢٠١٩
تاريخ القبول: ٩/ ٦/ ٢٠١٩

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

ملخص البحث:

تتجاوز الخطبة الحربيّة ملامح الخطبة العربيّة الاعتيادية؛ لخصوصية الحدث؛ فحالة الخطيب في ظروف الحرب ليست هي نفسها في السِّلم، لذا تمثلت مقاصد خاصّة بهذه الظروف وغايات أرادها الخطيب للحصول على المكسب الحربيّ، وفتحت هذه المساقات مجالاً تداوليّا للبحث، تكشّفت به مقاصد الخطيب، وغاياته التأثيريّة، وأثر حضور المتخاطبين في بنية الخطبة، والاستلزام الحواريّ. وكان التحليل التداوليّ لمفاصل الخطبة الحربيّة آلية تحليلية كاشفة لقيم تداوليّة كثيرة قارّة في هذه الخطب.

الكلمات المفتاحية: تحليليّة، الخطبة الحربية، صفين، الخطبة العربيّة الاعتيادية.

Abstract

The sermon goes beyond the features of the usual Arabic sermon; the specificity of the event; the situation of the orator , circumstances of war are not the same in peace، Therefore، the objectives were specific to these circumstances and goals the orator wants to gain military interest. Such issues open a field of pragmatic research studies which expose the intentions of the orator، and its purposes of influence. The impact of these factors could be noted on the structure of the sermon and the invocation of dialogue. The pragmatic analysis of the war sermon was an analytical mechanism revealing many pragmatic values in these speeches.

Key words: Analytic, military sermon, Suffin, normal Arabic sermon

١ - الصور الكلاميّة في الحرب:

اتضحت في هذا المُسجَّل (شعراً ونثراً)، قيماً تخاطبيّة عاليّة نتيجة لما تحتويه من أثر لسياقات التلفظ وأحوال المتخاطبين في صياغة هذه الأقوال، وحوت مفاهيم حجاجيّة لما تضمنته من محاولات اقناع من الطرفين وابداء البراهين والحجج لتأييد الآراء التي يؤمن بها الطرفان، من كل هذا تولّد لدينا مشهد تلفظي نستطيع وسمه بالآتي:

١ .تقسّم الكلمات المنقولة في مدونة المنقريّ على قسمين، الأول: الكلمات التي قيلت قبل الوصول إلى أرض المعركة ونستطيع أن نوسمها بأنها كلمات تمهيدية للمعركة، مثل الرسائل والخطب، والقسم الآخر: الكلمات التي قيلت في أرض المعركة تحت السيوف والرماح وبين ذرات الغبار والرمال، وغالباً ما تكون مناظرات، وأحياناً تكون خطباً.

٢ .تضمّنت المدونة أجناساً كلامية متعددة، شعراً ونثراً (رسائل، وخطب، ومناظرات)، غلب على هذه الأشكال التوجيه، والتأثير في الآخر، وقد تأسس الخطاب بحضور طرفين، متكلّم ومخاطب، يتبادلان الأدوار بحسب منطلقات الحوار القائم بينهما.

٣.الصراع اللفظيّ الدائر بين الطرفين هو نتيجة لصراع سياسيّ واقعيّ سببه الرغبة في بسط سلطة الدين وولاية الأمر التي يتصف بها الطرف الأول (أمير المؤمنين)، ورغبة جامحة من الطرف الثاني في تقويض سلطة الطرف الأول وتبديلها بسلطة الطرف الثاني بغض النظر عن أسس اختيار الخليفة في العرف الإسلاميّ[١].

ولا يمكن اطلاق وصف واحد على بنية الحدث الكلاميّ الدائر في ساحة المعركة أو تلك البيئة المرتبطة بها؛ والسبب في هذا هو التغيّر المستمر لأحوال الحرب، فسياقاتها تتبدل من رسائل متبادلة بين القادة إلى خطب موجّهة للجنود إلى مناظرة حربيّة قائمة بين قائدين يُظهران قوتهما وسيطرتهما على الموقف الحربيّ القائم، وبناء

على هذه القراءة للحدث الكلاميّ رأينا أنه يتشكل الخطاب الحربيّ من ثلاث صور تترتب بحسب الصدور:

١-الخطبة بتعدد أغراضها ومقاصدها، وجهة صدورها.

٢-الرسائل بين الفريقين المتحاربين، قبل الحرب وبعدها.

٣-المناظرة الحربية التي أنجزت في أثناء الحرب وجرائها.

ولم يكن البحث في هذه الصور الثلاث بالأمر المتيسر في هذه الورقة البحثية؛ لذا اتجه البحث في هذه الورقة إلى اختيار الخطب الحربية، وترحيل دراسة الرسائل والمناظرات إلى أوراق بحثية أخرى.

٢- البنية المعجميّة للخطبة:

إنّ مطالعة لفظة (خطبة) في المعجمات العربيّة يضع أمامنا معاني متعددة تتمحور كلها حول مفهوم مركزي أساسي هو الأمر الخطر والحدث المهم، وسمته الغالبة هو اجتماع جمهور من الناس في أثناء الخطبة في معانيها المختلفة[٢].

وإذا ما ركزنا على المعنى المراد هنا وهو الخطبة بمعنى الكلام المنطوق؛ فنجد أن المعنى المركزي، هو المؤسس لهذا المعنى؛ فقد ورد في المصباح المنير للفيومي (ت٧٧٠هـ): ((خَاطَبَهُ مُخَاطَبَةً وخِطَابًا وهو الكلامُ بين متكلِّمٍ وسامعٍ ومنه اشتقاقُ (الخُطْبَةِ) بضمِ الخاءِ وكسرِها باختلافِ معنيينِ فيقالُ في الموعظةِ (خَطَبَ) القومَ وعليهم من بابِ قَتَلَ (خُطْبَةً) بالضمِ وهي فُعْلَة بمعنى مفعولةٍ نحو (نُسْخَةٍ) بمعنى منسوخةٍ وغرفةٍ من ماءٍ بمعنى مغروفةٍ وجمعها(خُطَبٌ) مثل غُرفَة وغُرَف فهو (خَطِيبٌ) والجمعُ (الخُطَبَاءُ) وهو (خَطِيبُ) القومِ إذا كانَ هو المتكلمُ عنهم.))[٣].

ويتضح من نصِّ الفيومي تركيزه على جانب المشافهة الحاصل بحضور المتكلم والمخاطب في أثناء الكلام، وهذا الحضور هو المؤسس للخطبة بأنواعها المختلفة (سياسية، ودينية، وحربية، وغيرها)، فما لم تكن مواجهة بين المتكلّم والمخاطب فلا يمكن أن تتجسَّد الخطبة؛ سواء أكانت هذه المواجهة حقيقيّة أم افتراضيّة.

ولم يغب مشهد الحضور في نصِّ الزبيدي في تاج العروس، إذ قال: ((والخِطَابُ والمُخَاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الكَلاَمِ وقَدْ خَاطَبَهُ بالكَلاَم مُخَاطَبَةً وخِطَابًا وهُمَا يَتَخَاطَبَانِ قال تعالى: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[٤]))[٥]. وأشار الزبيديّ إلى علاقة البنية الصرفيّة في الاستعمال التخاطبيّ، وكيف ينتقل المعنى من الدلالة على الذات إلى الدلالة على الحدث، وأن هذا الانتقال أسهم في خلق جملة من الألفاظ ترتبط بالمعنى المحوريّ الأساسيّ، نحو (خطاب، خطيب، مخاطب) وكل هذا الانتقال والتولّد إنما يكون بفعل الجو التخاطبيّ الذي يتكون نتيجة مشهد الحضور القائم بين المشاركين في الخطاب. فقال: ((الخُطْبَةُ: مَصْدَرُ الخَطِيبِ (خَطَبَ الخَاطِبُ عَلَى المِنْبَرِ) يَخْطُبُ (خَطَابَةً بالفَتْحِ، وخُطْبَة، بالضَّمِّ)، قاله الليث، ونقله عنه أَبو منصور، قال: ولا يَجُوزُ إِلا علَى وَجْهٍ واحِدٍ، وهو أَنَّ اسمَ (ذلكَ الكَلاَم) الذي يَتَكَلَّمُ به الخَطِيبُ (خُطْبَةٌ أَيضاً) فيُوضعُ مَوضعَ المَصْدَرِ، قال الجوهريّ: خَطَبْتُ علَى المِنْبَرِ خُطْبَةً، بالضَّمِّ، وخَطَبْتُ المَرْأَةَ خِطْبَةً، بالكَسْرِ، واخْتَطَبَ فيهما، وقال ثعلب: خَطَبَ عَلَى القَوْم خُطْبَةً، فجَعَلَهَا مَصْدَراً، قال ابن سِيده: وَلاَ أَدْرِي كَيْفَ ذلكَ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ الاسمُ وُضِعَ مَوْضعَ المَصْدَرِ، (أَوْ هِيَ) أَيِ الخُطْبَةُ عِنْدَ العَرَبِ (الكَلاَمُ المَنْثُورُ المُسَجَّعُ ونَحْوُهُ)، وإِليه ذَهَبَ أَبو إِسحاقَ، وفي (التهذيب): الخُطْبَةُ: مِثْلُ الرِّسَالَةِ التي لها أَوَّلٌ وآخرٌ))[٦].

وقد أشار (المعجم الوسيط) إلى ما أشارت إليه المعجمات السابقة، فضلًا على اشتماله على بعض الإشارات الأخرى، فورد في هذا المعجم: ((الخطاب الكلام،

والرسالة. . . والخطاب المفتوح خطاب يوجّه إلى أُولي الأمر علانية. . . والخُطبة الكلام المنثور يخاطِب به متكلّم فصيح جمعاً من الناس لإقناعهم. . . والخطيب الحسنُ الخُطبة، ومن يقوم بالخطابة في المسجد وغيره المتحدّث عن القوم))[٧]، ونلحظ حضور مصطلح (المتكلّم الفصيح)، وهو مصطلح غاب عن المعجمات القديمة، والظاهر أن حضوره بسبب التباين في المستوى اللغويّ بين القديم والحديث، فلما لم يكن ثمة فرق بين الخطيب المرتقي المنبر في العصر الإسلاميّ، أو الأمويّ والعباسيّ، لم يفكر أو لم يخطر في بال المعجميّ تقسيم الخطيب الى فصيح وغير فصيح؛ ولكن لمّا صار المنبر يُرتقى من متكلمين تتباين درجات فصاحتهم؛ بل إن العي أحياناً يكون خطيباً، صار من الضرورة بمكان على المعجميّ الحديث أن يجد ما يميز الخطبة من الكلام الاعتيادي، فعمد إلى معيار الفصاحة معيارًا مميزًا.

٣- قيمة الاستهلال الاقناعية:

تكتسب افتتاحيّة الخطبة أهميتها التداوليّة من جهة أنها جاذبة لانتباه السامع؛ فهي غالباً ما تكون جملة بعد البسملة والحمد اللذين صارا بصمة الخطبة العربيّة الإسلاميّة، ولا يمكن أن يوصف الكلام بأنه خطبة من دونهما، ويحاول فيها المتكلّم لفت انتباه المخاطب وعدم تشتيت ذهنه، لغايات تداوليّة أخرى تتضح من خلال النظر في كلمات الخطبة ومقاصدها الكامنة.

ومن الواضح لنا في النظر في مقدمات الخطبة الحربيّة أن بداية الخطبة ذات قيمة تداوليّة اقناعية للمخاطب، فيعمد المتكلّم الى التركيز على القضايا ذات العناية المشتركة بينه وبين المتلقي، فتكون محل جذب المتلقي وتركيزه، من هذا ما قاله عبد الله بن بديل في خطبته في أصحابه بعد أن حمد الله تعالى، فقال: ((إنّ معاوية ادَّعى ما

ليس له، ونازع الأمر أهله ومن ليس مثله، وجادل بالباطل ليُدحِضَ به الحقّ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزيّن لهم الضلالة))[٨]، نلحظ أن المتكلّم في خطابه هنا قد جاء بأبرز قضية عند أصحاب الإمام علي، وهي: أن معاوية ليس بصاحب الأمر الشرعيّ بل هو مدعٍ ما ليس له، وقد اتفق المتكلم والمخاطب على صواب هذه القضيّة وآمنوا بها، ويعدّ ذكرها في هذا المحل نقطة جذب لانتباه المخاطب، ويمكن للمتكلم بعد هذا الجذب أن يقول كلَّ ما يريد أو يوجه مخاطبه الجهة التي يرغب فيها، وقد وجدنا أن بؤرة الكلام في خطبته هي قوله بعد الاستهلال (قاتلوا الطغام الجفاة ولا تخشوهم)، فهذه الجملة هي المحور الأساس الذي يدور عليه كلام الخطيب، وهي الغاية من إنشاء كلامه، وقد استعملها أساساً لخلق حالة من التركيز الذهنيّ للكلام الذي سيقال في ما بعد. وقد نجح في خلق تجاوب واضح من المخاطب، وهو ما أضفى قيمة تأثيريّة للاستهلال.

وقد تنعكس الحالة الشعورية للخطيب على كلامه وتظهر فيه حقيقة مشاعره ومعتقداته، ويعمد في كلامه لتغيير الحالة السلوكيّة للمخاطب أو تثبيتها، من هذا قول مالك الأشتر بعد البسملة والحمد لله والثناء عليه: ((فنحن بحمد الله ونعمته ومنه وفضله قريرة أعيننا، طيبة أنفسنا، ونرجو في قتالهم حسن الثواب، والأمن من العقاب، معنا ابن عم نبينا، وسيف من سيوف الله، علي بن أبي طالب))[٩]، فاستفتح خطبته بجمل تعمل عملاً تأثيرياً في المخاطب؛ إذ إنّه ركّز على المنحى العقائدي في خطبته، فأشار الى حسن الخاتمة وأنهم سيؤمنون من العقاب في الآخرة، كلُّ هذا لأنَّهم في جيش علي بن أبي طالب، وهو جيش الحق، وهذا التركيز على المنحى العقائديّ يتجاوز قضايا الانتصار والهزيمة، فالوقوف مع الحق هو الغاية الأساسيّة التي يهدف لها المسلم المؤمن بالقيّم الدينيّة الحقّة. وقد ظلّت افتتاحيات

الخطب في معظمها ذات قيمة تأثيريّة من حيث الغايات والمقاصد؛ لأنّ ((الغاية من الافتتاح هي كسب المخاطب لمصلحة الأطروحة التي دافع عنها. . . للافتتاح على وجه العموم وظائف ثلاثة هي:

١-إثارة انتباه المتلقي أو القاضي.

٢-تهيئته من أجل الاستفادة.

٣-استمالته، وأهمية هذه العناصر تختلف باختلاف أجناس الخطابة))[١٠].

ونجد أن هذه الغايات اصطبغت بصبغة التأويل التداوليّ الذي يعمد فيه الخطيب إلى استمالة المتلقي وتوجيهه الجهة التي يقصدها، من هذا ما قاله ذو الكلاع في استهلال خطبته ((ثم كان ممّا قضى الله أن ضم بيننا وبين أهل ديننا بصفين، وإنّا لنعلم أن فيهم قوماً كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه سابقة ذات شأن وخطر، ولكني ضربت الأمر ظهراً وبطناً فلم أرَ يسعني أن يُهدرَ دم عثمان صهر رسول الله ﷺ نبينا، الذى جهّز جيش العُسرة، وألحق في مسجد رسول الله بيتاً وبنى سقايةً))[١١].

اعتمد ذو الكلاع التأويل عاملاً مؤثراً في توجيه انتباه المخاطب، معتمداً على السلطة التي يمتلكها بوصفه قائداً من قادة جيش الشام، فعمد إلى صرف انتباههم عن الثوابت الإسلاميّة القارّة في الذهن الجمعيّ للمسلمين كافة، فهذه الثوابت لا تعضد قضيته بقدر ما تضعف حجته فعمد إلى تأويل الوقائع والحقائق للانتفاع منها، وكانت القضيّة الأساسيّة لديه هي مقتل عثمان بن عفان؛ فصارت القضيّة التي تجمعهم وتحركهم في معركتهم؛ لأنّ من له سلطان ((لا يستتبع غيره بلغة الأمر والطاعة، المبنيّة على الحق والواجب، بل بلغة الأمر المبنيّة على التأثير الفعلي الذي يصادف أن يمارسه فيه. وعمق التأثير هذا يأتي من عظمة الشخصيّة، أو من حدّة الذكاء، أو من روعة الرؤية، أو من اتساع الخبرة، أو من وفرة المال، أو من علّة

الجاه، أو من بهاء الفضيلة، أو من غير ذلك ممّا يتمتع به أفراد البشر من صفات ماديّة وروحيّة))[١٢]، فالسّلطة التي يمتلكها ذو الكلاع جعلته يعتني بالقضيّة الأساسيّة عنده (مقتل عثمان)، ويجعلها أساس استهلال كلامه؛ لينقل بهذا صورة للمخاطب بضرورة الثبات على هذه القضية وجعلها قضية محورية في الحرب وخارجها.

إنّ قيمة الاستهلال في الخطبة لا تقف عند جلب انتباه المخاطب أو محاولة تغيير سلوكه، بل تتعدى إلى تثبيت القضايا العقائدية التي تنفع في رفع الحالة المعنوية للمقاتلين في الحرب، من هذا ما نجده في خطبة معاوية حينما قال ((ثم كان فيما قضى الله أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض، ولف بيننا وبين أهل العراق، فنحن من الله بمنظر. وقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُّ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَّ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [١٣]))[١٤]، إن إحالة نتائج الأمور على الأقدار هو إشارة من الخطيب الى المخاطبين بأن يرضوا لكلّ ما يحصل وأن يقفوا معه بكلّ موقف دون اعتراض أو امتناع، فهو إنّما يسير ويعمل تحت أمر الله وأنه لا يخطو خطوة إلا ولله فيها رضًا وقبول.

وإيكال مآلات الأمور إلى القوى الغيبية يخلق جيشاً مطيعاً لأمر قائده ولا يحاول أن يسأل أو يستفسر عن تصرفات القائد وأفعاله، ولاسيما ان كان هذا الجيش لا يمتلك رؤية حقيقيّة للوقائع، ويخضع للسلطة السياسيّة والدينية من دون وعي وإدراك.

٤- مقاصد التأثير في الخطبة الحربية:

لا نجانب الصواب إن قلنا إنَّ قصد التأثير في المخاطب هو الأساس في تكوين الخطبة الحربيّة سواء أكان هذا المخاطب ايجابياً؛ أي: من جهة الخطيب نفسها، أم كان سلبياً؛ أي من جبهة العدو، فالتأثير ((هدف مركزي، وسمة رئيسة، وغاية ينشدها كل طرف من أطراف هذه الأعمال الحجاجية لدى العرب))[١٥]، بل إن (بنفينيست)،

جعل التأثير عاملاً أساسياً في تكوين الخطاب، فقال في تعريف الخطاب إنه ((كلّ منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما))[١٦]. وإنَّ مفهوم الإقناع أو التأثير في الدراسات اللسانيّة مفهوم لا يغيب عن الخطاب الحربيّ، وإن اتسم هذا الخطاب بالعنف والقسوة، ففي كثير من المواقف نجد الخطيب يبحث عن استمالة الآخر نحوه، وكسبه إلى جانبه، سواء أكان هذا الكسب للعواطف والأفكار، أم للسلوك والأفعال، وهو غاية أساسيّة عمل على تحقيقها معظم قادة الجيش في الفرقتين.

وقد اتضحت محاولة التأثير شاخصة في خطبة أمير المؤمنين لأصحابه قاصداً رصّ صفوفهم وحثّهم على قتال عدوهم، مذكراً إياهم بخصائصه قائداً لهم وبخصائص خصمه عدوهم، فقال: ((وقد عهد إليَّ رسول اللهﷺ عهداً فلست أحيد عنه، وقد حضرتم عدوَّكم وقد علمتم من رئيسهم، منافق ابن منافق يدعوهم إلى النار، وابن عمِّ نبيّكم معكم بين أظهركم يدعوكم إلى الجنة وإلى طاعة ربكم، ويعمل بسنَّة نبيكم ﷺ. فلا سواء من صلّى قبل كل ذكر. لم يسبقني بصلاتي مع رسول الله ﷺأحدٌ، وأنا من أهل بدر، ومعاوية طليق ابن طليق. والله إنّكم لعلى حقٍّ وإنّهم لعلى باطلٍ، فلا يكوننَّ القوم على باطلهم اجتمعوا عليه وتفرَّقون عن حقكم حتى يغلب باطلهم حقّكم. ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[١٧]. فإن لم تفعلوا يعذِّبهم بأيدي غيركم))[١٨].

لقد أسس أمير المؤمنين خطابه هذا على افتراضات سابقة، قارّة في الذهن الجمعيّ للمخاطبين، فعمد إلى تحريك هذه الافتراضات وحضورها حضوراً شاخصاً أمام أنظار المستمعين، كيما يصير الخطاب ناجعاً ذا قيمة تخاطبيّة اقناعيّة، لأنّ الخطاب -أياً كانت أسباب انتاجه- يتأثر بالحالة النفسيّة للمتكلّم، وبأحوال المخاطب، وهذا ما أسماه (ميشال لونات) بـ(مرحلة التوعيّة) في عمليّة الإقناع والتأثير، وتتضمن

التوعيّة آليات الإقناع اللسانيّ والتوضيح والتفهيم، وتعزيز كلِّ ذلك بالأدلة والبراهين المقنعة التي تنساب إلى عقول المستقبلين، على أن يتوفر في الأفكار المراد إيصالها البساطة والوضوح، حتى لا يتعب المتلقي في فك رموزها أو ما غمض منها، ومن ثم يسهل عليه فهمها وهضمها، فتنال بذلك الرسالة الإقناعية المصداقية، ومّما يساعد كذلك على فهم هذه الرسالة، وضوح الغرض المقصود(١٩)، فمسار التوعيّة سار في خطين متوازيين، الأوّل: إنّ أمير المؤمنين هو ابن عم رسول الله وصاحب عهده، وهو يدعوهم إلى الجنة، والآخر: إن معاوية طليق وهو عدوهم، وهو يدعو إلى الباطل. هذان الخطان ينتهيان عند نقطة واحدة هي بيت القصيد بالنسبة لهذه الخطبة وهي قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، فقتال جيش معاوية هو القصد الأساسي من انشاء هذه الخطبة، وظل هذا القصد حاضراً إلى نهاية المعركة.

وقد ارتكز المتكلّم على الصفات الشخصيّة العظيمة له، والتي ذكرها في كلامه، وهو محاولة منه التأثير في المخاطب من طريق الملاءمة بين الوضع الحربيّ الذي يعيشه المشتركون في الخطاب، وبين أحواله وصفاته ملاءمة تجعله قادراً على التأثير في المخاطب وتغيير سلوكه وقناعاته، ونلحظ أن اتجاه خطاب المتكلّم كان نحو جمهور ايجابيّ؛ أي: إن المتلقي ساهم مساهمة فاعلة في تكوين بنية الخطاب هذه فثبّت الموقف العقائديّ وقوّاه.

وقد نجد مخاطباً من نوعٍ آخر قد أسهم مساهمة فاعلة في تكوين البنية القوليّة للخطاب، كما نجد هذا في خطبة خفاف بن عبد الله، أمام جماعة من أهل الشام بعد أن بعثه أمير المؤمنين في قصد خاص جداً وهو ((أن يلقى معاوية لعلّه أن يكسره ويكسر أهل الشام))(٢٠)، وقصد التأثير هذا حمله خفاف معه في خطبته الطويلة التي شرح فيها أحوال مقتل عثمان بن عفان منتهياً إلى قوله: ((وتجرَّد في أمره ثلاثة نفر: عدّي بن حاتم، والأشتر النخعي، وعمرو بن الحمق، وجدَّ في أمره رجلان؛ طلحة

والزبير، وأبرأ الناس منه عليٌّ. قال: ثم مه ؟ قال: ثم تهافت الناس على عليٍّ بالبيعة تهافت الفراش، حتَّى ضلت النّعل وسقط الرّداء، ووطئ الشيخ، ولم يَذكر عثمان ولم يُذكر له))[٢١]، إن ما يُلحظ على هذا القصد الواضح (كسر أهل الشام)؛ أي: التأثير فيهم وتغيير أفعالهم، أنه لم يعتنِ بالاقتناع الفكريّ والعقديّ للمخاطب أو تأثره تأثيراً معنوياً، بقدر عنايته بتغيّر سلوك المخاطب، فلا دخل للمتكلّم بقناعات المخاطب، وعليه فهذه العمليّة لا تقف عند حدود إيصال الأفكار والعقائد والقيم، بل تركز على تفاعل المخاطب مع المتكلّم تفاعلاً دائماً مستمراً، والمراد من التفاعل هنا إبقاء انتباه المخاطب وتركيزه منصباً نحو المتكلّم، يفسّر ما يقول ويحاول أن يستوضح ما لم يفهم من كلامه، وقد حصل بعض التأثر في المخاطب من هذا القول ((فذعر معاوية من قوله، وقال حابس: أيّها الأمير لقد أسمعني شعراً غيَّر به حالي في عثمان، وعظم به علياً عندي))[٢٢]، وهذا التغيير الحاصل في حال حابس هو قصد أساسي للخطيب، وقد نجح في تحقيقه لأن الاقناع هو ((قصد المتحدث إلى إحداث تغيير في الموقف الفكريّ أو العاطفيّ عند المتلقين))[٢٣].

ولكنّ عمليّة التأثير قد يشوبها الفشل تبعاً لأحوال المخاطب، فيرفض المخاطب دعوة المتكلّم ويعدها تجاوزاً على حقه أو أمراً مفروضاً عليه فرضاً قسرياً، نجد هذا في قول أمير المؤمنين في خطبة له: ((سيروا إلى أعداء الله. سيروا إلى أعداء السنن والقرآن، سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار «. فقام رجل من بنى فزارة يقال له أربد فقال: أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم. كلا، ها الله إذا لا نفعل ذلك))[٢٤].

فغياب التأثير في المخاطب وعدم اقتناعه بكلام أمير المؤمنين عائد إلى مرتكزات عقائديّة قارّة في ذهن المتلقي، فالمخاطب ردّ الكلام عاداً إياه دعوة للاقتتال بين

الإخوة، كما تقاتلوا في البصرة- إشارة إلى حرب الجمل- وهذا الاقتتال لا طائل منه ويجب رفضه ووقفه مع عدم الالتفات إلى الداعي له سواء أكان علي بن أبي طالب أم معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن هذا الرفض سمة شخصيّة؛ بل تشكلّت فئة رافضة رادّة لأقوال أمير المؤمنين لا تنصاع له بعد أن كانوا من جنده، نتيجة خلافات عقائديّة، نتج عنها جماعة الخوارج التي رفضت الحرب، ورفضت الانصياع لكلا الفريقين.

فغياب التأثير في المتلقي لا ترجع أسبابه إلى عوامل لفظيّة فحسب؛ بل إنه خاضع إلى ما بعد اللغة؛ أي: الظروف المصاحبة لإنتاج الخطاب، وأحوال المخاطبين وأحوال المتكلم؛ فالنظر في هذه السياقات يستدعي منّا النظر في أحوال المتلقي (اربد، الذي وصف أنه من فزارة)، فالبادي عليه أنه رجل لا يخضع لعلي بن أبي طالب خضوعاً تامّا؛ بل إنه لا يجد فرقاً بين جيش علي بن أبي طالب، وجيش طلحة والزبير في البصرة، وجيش معاوية في الشام، والخلط بين هذه الجيوش لا ينتج إلا من ضعف في الرؤية السياسيّة والعقائديّة، فبساطة التفكير هي التي جعلت أربد يحتار في تحديد جهة الحق، فيظلّ حائراً لا يقرُّ له قرار.

وفشل التأثير في المتلقي لا يمنع الخطيب من تكرار الفعل مرة بعد أخرى مادام يؤمن بأحقية غايته وهدفه لأن ((الأصل في عملية الإقناع أن تقوم على قوة الحجة ووضوح الدليل، فالحق فيها ما وافق الدليل من غير التفات إلى كثرة المتقبلين او قلّتهم، أو هو كما قال الجويني في خامسة قواعد الجدل، الحق لا يعرف بالرجال، أعرف الحق تعرف رجاله. فقد يخطئ العاقل ويصيب الجاهل. وعلى هذا الأساس لا يصح القول أو يفسد بكثرة المقبلين عليه أو النافرين منه))(٢٥).

وما يميّز هذه الخطب أنها خطب توجيهيّة صادرة في الغالب من قادة الجيش، تهدف إلى حثّ المقاتلين على القتال والصمود أمام العدو، وعدم الانهزام، ويركز الخطيب فيها على المكاسب الدينيّة نتيجة هذا الصمود، والتي سيجنيها المقاتل في حال الانتصار أو في حال الشهادة، فيذكرهم بالجهاد في سبيل الله، وحسن العاقبة في الحياة الأخرى. وهذه الأغراض والغايات حضرت في كلمات الفريقين، ولكن اختلفت علّة الحضور، ففي الوقت الذي ظلّ معسكر أهل العراق مؤمناً بالقيم الإسلاميّة، ومقدماً لها على المكاسب الدنيويّة، وهو في هذا يطابق ما يؤمن به مع ما يقوله؛ كان أهل الشام يرفعون الشعارات الإيمانيّة ويريدون منها الكسب الدنيويّ، غير آبهين لمصداقية هذه الأقوال والشعارات.

٥- دلالات الحضور التخاطبيّ:

لا يمكن النظر للخطاب؛ أي خطاب كان، نظرة مقطوعة عن سياقات انتاجه، فهو لا يمكن أن يتكوّن إلا بفعل عوامل التكوين التي تحيزه وتكوّنه، وتعدّ ظروف الانتاج العامل الأساسيّ في تمحور بنيّة القول وصيرورتها؛ فهو الذي يجمع المخاطب مع المتكلّم؛ ليقفا وجهاً لوجه، متخاطبَين ومتحاورَين، إنّ كلًّا من المقام، والمتكلم، والمخاطَب عناصر غير لغوية، وهي تمثل ضغوطا إنجازية قصوى، إن رُوعيت حسُن الكلام، ونجعت العملية التخاطبية، وارتقت أعلى القمم البلاغية، ولا يمكن للمعنى أن يتضح إلاّ باستحضار المقام الحيّ، والمتكلم الفطن، والمتلقي اليقظ.[٢٦] من هنا نجد أن قوة حضور المتكلم والمتخاطبين في الحدث التخاطبيّ تتقوّم بعناصر أبرزها الآتي:

١-ظروف إنتاج الخطاب (زمان، ومكان، وأحوال المشاركين بالخطاب).

٢-المشيرات المقاميّة الدالة على المشاركين في الخطاب، نحو: أنا، نحن، أنتم، هم، الذين، هؤلاء. . .

٣-القيم التي يؤمن بها كل طرف من طرفي الخطاب (المتكلّم، المتخاطبين)، منفصلاً عن الطرف الآخر.

٤-الموضوعات والقيم والآراء المشتركة بين المشاركين في الخطاب.

وقد تبينت عناصر التخاطب هذه جلية واضحة في كثير من الخطب التي قيلت في وقعة صفين، منها((لمّا توادع علي عليه السلام ومعاوية بصفين اختلفت الرسل فيما بينهما رجاء الصلح، فأرسل علي بن أبى طالب إلى معاوية عدي بن حاتم، وشبث بن ربعي، ويزيد بن قيس، وزياد بن خصفة، فدخلوا على معاوية، فحمد الله عدي بن حاتم وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد فإنا أتيناك لندعوك إلى أمرٍ يجمع الله به كلمتنا وأمتنا، ويحقن الله به دماء المسلمين، وندعوك إلى أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام آثاراً، وقد اجتمع له الناس، وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فأتوا، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فانتهِ يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل))[٢٧].

تتمظهر عناصر الخطاب في هذا النصّ بالظروف الحافّة بالخطاب أولاً، وهي أن جو الخطاب كان محاولة جمع كلمة الأمة على أمر واحد، وهو أخذ البيعة للإمام من المسلمين كافة، ولاسيّما أهل الشام، وهي المحاولة التي عمد إليها كثير من أصحاب الإمام علي قبل أن تقع الحرب، ولكنّها محاولة لم تنجح؛ لرفض أهل الشام البيعة وإصرارهم على خلع الإمام عليّ لغايات أخرى لم يصرحوا بها في وقت الحرب، وتتمثل هذه الغايات بتسنم معاوية بن أبي سفيان رئاسة الدولة الإسلاميّة، وقد أخفى أهل الشام هذه الغايات في محاولة منهم للاستفادة من مقتل عثمان بن عفان، والتضليل على جيش أهل العراق؛ وهو أمر لم يدم اخفاؤه، فقد انكشف جلياً واضحاً بعد مقتل علي بن أبي طالب. شكّلت هذه المساقات ظرفاً حاوياً للبنية

اللغويّة، وموجهاً خطابيّاً فاعلاً للمتكلّم كون ((المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل. وهذا معلوم في علم المعاني والبيان. فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد))[٢٨]. وقد اتسعت الدائرة الخطابيّة لتشمل من لم يحضر زمان الخطاب ومكانه نتيجة استعمال المتكلّم الضمير (إنَّا) بصيغته الدالة على الجمع وليس على المفرد، وفيه دلالة على المشاركة في الخطاب مع غيره؛ أي: المشارك معه في الكلام، والمتكلّم هو الذي أشركه معه في الكلام بناء على الارتباط المصيريّ بين الاثنين، فمن لم يحضر مقام التكلّم لم يغب عن المشاركة في الخطاب؛ لأن اختيار هذه الصورة دون غيرها، يتعلق بالسياق عموماً، أي يتعلق بالمتخاطبين، وبعلاقتهما داخل السياق، ويتعلق بما هو خارج السياق، أي يتعلق بما يعرفه هذا المتخاطب عن الآخر، وما يعرفه المتخاطبان عن المقام، وعما يريدان قوله، أو سماعه، وهما يعرفان معرفة تامة المدى الذي يمكن أن يبلغاه في الخطاب، فأحد المتخاطبين يمكن أن يكون خطيباً، أو معلّماً، والآخر يمكن أن يكون جمهوراً، أو مستمعاً، فالعلاقات تظل هي نفسها، والصور يجب أن تكون مضبوطة حتى تناسب المقام بالشكل الأقرب، فيرى عالم الاجتماع الألماني (ديتمار لوش lohsh Ditmar) أنّ محددات اجتماعية مثل الاحترام، أو الألفة، أو الكراهية – والتي تندرج بضمنها العلاقات العاطفية، فتكون مثلاً علاقة ودّ، أو علاقة صدّ، أو قرب، أو بعد، والتي يكون الخطاب علامة، ومؤثراً، ومشخصاً لها – تعدّ عوامل حاسمة في تحديد الاستراتيجية الخطابية التي يتبناها الخطيب في أثناء الخطاب[٢٩]. وتتضح قيمة الحضور التخاطبيّ وأثره في صياغة الكلام مصحوباً بأثر المساقات

الحافّة في الخطاب حينما أراد معاوية الكلام حاثّاً أصحابه للثبات في الحرب فقد ((زوق معاوية خطبة، وأمر بالمنبر فأخرج، ثم أمر أجناد أهل الشام فحضروا خطبته، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أعيرونا أنفسكم وجماجمكم، لا تفشلوا ولا تخاذلوا، فإن اليوم يوم خطار، ويوم حقيقة وحفاظ، فإنكم على حق وبأيديكم حجة وإنّما تقاتلون من نكث البيعة، وسفك الدم الحرام، فليس له في السماء عاذر))[٣٠].

يصور لنا هذا النصّ عناية المتكلم بالمقام التخاطبيّ، والذي هو إطار يتحدد زماناً ومكاناً بلحظة التخاطب، والعلاقة بينه وبين التخاطب علاقة جدليّة إذ يحدّد أحدهما الآخر ويتأثر به. فالتلفظ لا يكون إلا في مقام ما، والمقام لا يتعين إلا بعملية التلفظ بحدث خطاب يحدّد لحظة زمانيّة معينة هي الآن[٣١]، وقد تبيّن للمتكلّم تأثير المقام التخاطبيّ في المخاطب، فتزويق المنبر لإضافة شيء من الأبهة والعظمة التي تنعكس على مكانة معاوية عند أهل الشام، وتمثل دعوته لكبرائهم لحضور خطبته، إشعاراً منه بأنّه سيتكلّم على أمر جلل يخصّ المعترك الذي دخله أهل الشام مع أهل العراق، ولا يمكننا أن نفهم هذا الاعتناء بتهيئة جو الخطبة من مكان وجمهور إلا إن نظرنا في المقام التخاطبي الذي حفَّز معاوية على الكلام، وهو كما قال نصر بن مزاحم: ((خرج في ذلك اليوم شمر بن أبرهة بن الصباح الحميري، فلحق بعلي عليه السلام في ناس من قرّاء أهل الشام، ففتَّ ذلك في عضد معاوية وعمرو بن العاص))[٣٢]، فالسياقات النفسيّة (الخوف، والقلق، والحرص) هي التي وجهت معاوية وعمرو بن العاص لتهيئة الخطبة وتوجيه المخاطبين وبث فيهم روح العزيمة لمواجهة عدوهم. ويعد هذا الفعل مقتضى تداوليّاً قبل إنتاج الخطاب وفي أثنائه؛ ليحافظ المرسل على ما تستحقه عناصر السياق من خطاب بالموازاة مع تحقيق الهدف والتعبير عن القصد.

ويتجلى الحضور التخاطبيّ بأن يتوجه المحاور إلى غيره كاشفاً له ما يعتقد، وما يعرف، ومطالباً إيّاه بمشاركته اعتقاداته، ومعارفه وبعد هذا (الاطلاع)، وهذه المطالبة يتكوّن البعد الاجتماعيّ ويزداد رسوخاً لتجاوز الخلافات في الرأي بين المتحاورين تجاوزاً لا يأتي بالحل الوحيد، والأوحد بقدر ما يأتي بحلول متوازنة، ومعتدلة تستجيب لأوضاع تتغير عناصرها، وتستجد مطالبها على مرّ الزمن(٣٣).

يتبدى هذا البعد الاجتماعيّ للمقام التخاطبيّ واضحاً جلياً حينما ((قام يزيد بن أسد البجلي [في أهل الشام] يخطب الناس بصفين، وعليه يومئذ قباءُ خزّ، وعمامةٌ سوداء، آخذاً بقائم سيفه، واضعاً نعل السيف على الأرض متوكئاً عليه. قال صعصعة: فذكر لي أبرهة أنّه كان يومئذ من أجمل العرب وأكرمه وأبلغه فقال: «الحمد لله الواحد القهار، ذي الطول والجلال، العزيز الجبار، الحليم الغفار، الكبير المتعال. . . ثم قد كان مما قضى الله أن جمعنا وأهل ديننا في هذه الرقعة من الأرض، والله يعلم أني كنت لذلك كارهاً، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا، ولم يتركونا نرتاد لأنفسنا، وننظر لمعادنا حتى نزلوا بين أظهرنا، وفي حريمنا وبيضتنا. وقد علمنا أن في القوم أحلاماً وطغاماً، فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ونسائنا»))(٣٤).

اعتنى ناقل النص هنا بهيئة المتكلّم وقد صورها تصويراً كاملاً من لباس وحركة، وبيان حالته من كرم وجمال، لينتقل الكلام بعدُ إلى الإحالة على المشاركين في المعركة وحضورهم في أرض واحدة، وهم مشتركون في العقيدة والنسب، فهم عرب، ومسلمون، لكنّ الحالة السياسيّة التي صاروا فيها قسّمتهم على قسمين: جيش أهل العراق، وجيش أهل الشام. وقد تجاوز المتكلّم حالة الافراد في الخطبة لينتقل إلى حالة الجمع؛ فهو يتكلّم بصيغة ضمير الجماعة، والظاهر أنّ سياق الحرب الذي يحتاج إلى رصّ الصفوف والتكاتف الجماعيّ هو الذي حوّل تعبير المتكلّم وجعله ينتقل إلى الكلام بصيغة الجمع؛ كيما يشترك معه المخاطب في وحدة القضيّة والمصير.

ونتلمس ممّا تقدّم حضور الذاتيّة في الخطاب حضوراً لافتاً، فيحاول المتكلّم أن يتموضع في السياق المقامي بوصفه ذاتاً، وتتحدد باعتبارها وحدة نفسيّة تحقق الوعي، وتتعدى مجموع التجارب المعيشة، وليست مجرد إحساس يعبر عنه الفرد، وقد عدّ بنفينست الذاتيّة ((خاصيّة جوهريّة وداخليّة ملازمة للخطاب، لأنّه لا يمكن أن نتصور لغة دون عبارات دالة على الذات، وليس التلفظ سوى التجسيد العملي للغة من خلال إنجاز فردي))[٣٥].

لقد مثّل ضمير المتكلم حضوراً قوياً، ومكثّفًا - في قوله ((أني كنت لذلك كارهاً ولكنهم لم يبلعونا ريقنا)) - حينما مزج بين المفرد والجمع في صيغة التكلّم، وفي هذا دلالة قوية جداً على المصير المشترك بينه وبين من ينتمي إليهم فقد وظّف ضمير (جمع المتكلم)؛ لأنّه في سياق الحديث عن أمر مشترك وهو (الحرب القادمة)، وساوى نفسه مع المخاطَب ولم يكتفِ ببناء علاقة بخطابه، بل حرص على المواصلة فيها بعيداً بعد انتهاء المساحة الخطابية، فتحمّل الضمير دلالات خطابيّة أوسع من دلالته اللغويّة لأنه في حقيقته شكل فارغ مناسب لكل متكلّم يمارس الخطاب يعلّقه بشخصه معرّفاً نفسه بوصفه (أنا)، ومعرفا شريكاً له بوصفه (أنت) في الوقت نفسه، فيُستعمل الوضع الخطابي على جميع المعطيات التي تحدد الذات[٣٦].

٦- أثر الاستلزام التخاطبي في فهم الخطاب:

اقترح كرايس في مقاله الشهير: (المنطق والمحادثة) مفهوم حِكَم المحادثة وتتمثل الفكرة الرئيسة في أنَّ المتحاورين يتقاسمون هدفاً مشتركاً، إذا انعدم لن يكون ثمة تواصل أو سبب للتواصل، وعن هذا المبدأ تفرعت مبادئ فرعية أخرى(٣٧).

إنَّ تصور كرايس للعلاقة بين اللغة واستعمالها يعد تصوراً تقليدياً؛ لأنَّه يرى أنَّ مجموع القرائن الزمانية والمكانية والشخصية فضلا عن مجموع المعارف المشتركة بين المساهمين في عملية التواصل هي عوامل محددة لقيمة استخدام قولٍ ما في سياقٍ ما، كما لاحظ كرايس أنَّ بعض الأقوال تبلغ أكثر مما يدل عليه مجموع الكلمات التي تكوّن الجملة، وبعبارة أخرى إنَّ المتكلم يجعل سامعه يدرك من الدلالة ما يفوق المعنى الحرفي للجملة، وبحسب العامل الذي يولد الاستلزام سواء أكان عبارة لغوية، أم مبادئ عامة مقترنة بالتواصل؛ ليكون هذا الاستلزام وضعياً أو محادثياً(٣٨).

وتتقوّم هذه الفكرة بما رقمه غرايس من قوانين ومسلّمات لها، تنصّ على أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ التعاون ومسلمات حوارية وهي مسلَّمات أربع(٣٩):

أولا: مسلَّمة الكم: وتخص كمية الإخبار التي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية.

ثانيا: مسلَّمة الكيف: ونصّها: لا تقل ما تعتقد أنَّه كاذب ولا تقل ما لا تستطيع البرهنة على صدقه.

ثالثا: مسلَّمة الملاءمة: وهي قاعدة واحدة (لتكن مشاركتك ملاءمة).

رابعا: مسلَّمة الجهة: تنصُّ على الوضوح في الكلام، وتتفرع إلى ثلاث قواعد:

أ ـ ابتعد عن اللبس.

ب ـ تحرَّ الإِيجاز.

ج ـ تحرَّ الترتيب.

وقد رسمت هذه المسلمات خطاً تواصلياً بين المتكلّم والمخاطب، بها يكون التواصل واضحاً ومفيداً، ومن الصعب أن يسير المتكلّم على وفق هذه القواعد الموضوعة، فالمتكلمون يعمدون في كثير من المناسبات إلى خرق هذه القواعد ممّا ينتج عنه (الاستلزام التخاطبي).

فمسلَّمة (الكم)، تتعلق بمقدار المعلومات، وكمها ولا علاقة لها بصدق المعلومة أو بملاءمتها للخطاب؛ وكما قيل (خير الكلام ما قلَّ، ودلَّ)(٤٠). وممّا ورد من خرق لهذه المسلّمة في الخطب الحربيّة ما ورد من كلام قيس بن فهدان حينما كان يحرِّض أصحابه ويقول: ((إذا شددتم فشدوا جميعاً وغضّوا الأبصار، وأقلّوا الكلام واللغط، واعتوروا الأقران، ولا تؤتين من قبلكم العرب))(٤١). فقد خرق المتكلّم مبدأ الكم، لأنّه جاء بكلمات أقلّ ممّا يفترض أن يذكرها؛ فقضية الحرب ووضع الخطط تحتاج إلى شرح وإسهاب؛ ولكنه اعتمد على فهم المخاطب، فكثّف المعاني عن طريق ضغط العبارات الواردة في هذه الخطبة، وقد وصلت هذه المعاني إلى المخاطب بطريقة سهلة يسيرة؛ اعتماداً على مضمرات الخطاب والمعلومات المشتركة للمتخاطبين، فنلحظ أن المتكلّم لم يوجه المخاطب مكانياً أو زمانياً، فلم يقل شدوا إلى مكانٍ كذا أو في وقت كذا، أو إلى قوم كذا، فقد أخفى المتكلّم حمولات قوليّة مكثّفة في النص وأظهر ما يدلّ على هذا الاخفاء، فظلَّت كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها حاضرة في ذهنية المتلقي، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث، فالنص نسيج من أقوال يجهر بها ومن أقوال مضمنة فيه مضمرة وهو آلة كسولة تتطلب من المخاطب عملاً تعاونياً متواصلاً لملء فراغات المسكوت عنه أو ما قيل وبقي محله شاغراً(٤٢).

فحوى هذا النص خطة حربيّة متكاملة لم يكشف عن تفاصيلها المتكلّم بل ظلّت في ضمير المتخاطبين (المتكلّم، والمخاطب)، ففهم المخاطب المراد من قول المتكلّم بأقل كمية من الألفاظ، فقوله (واعتوروا الأقران)، تضمن خطة حربيّة شاملة فهو يقول لهم يجب عليكم أن تستبدلوا النظير والمثيل في الحرب فلا تقفوا عند نظير واحد؛ بل اتركوه وانتقلوا إلى أحدٍ غيره، وفي هذا تمويه نافع ومفيد للمعركة. وبهذا نجد المتكلّم قد نجح في إفهام المخاطب مقاصده بالقدر الكافي من الكلمات فهو إيجاز غير مخلٍ.

أما مسلّمة الكيف، والتي تتعلق بصدق المعلومة أو كذبها، فيرى غرايس أن المتكلّم يجب عليه أن لا يقول ما يعتقد أنه كاذب، أو ما لا يستطيع أن يثبت صحته، إذن نحن أمام فرضية تجعل من الرغبة في قول الصدق أساساً للتواصل والتحاور بين المتخاطبين، ويحصل انتهاك قاعدة الكيف حين يقول المتكلِّم لمحاوره كلاماً ما، ولم يكنْ صادقاً فيه، أو يقوله وهو يعتقد كذبه، أو يقوله وقد افتقر إلى البرهان على صدقه مع استمرار احترامه لمبدأ التعاون؛ فينتج عن هذا كلّه انتهاك لقاعدة الكيف. ويتبدَّى هذا واضحاً جلياً في خطبة معاوية أمام أهل الشام حينما قال: ((يا أهل الشام، قد كنتم تكذّبوني في علي، وقد استبان لكم أمره، والله ما قتل خليفتكم غيرُه، وهو أمر بقتله، وألّب الناس عليه، وآوى قتلته، وهم جنده وأنصاره وأعوانه، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم وديياركم لإبادتكم))[٤٣].

إن القسَمَ الذي قدّمه معاوية أمام الإخبار بأن علياً هو الذي قتل عثمان، يمثل خرقاً فاضحاً لمبدأ الكيف؛ لأنّ القارّ والراسخ عند الأمة الإسلامية أن علياً كان بعيداً كل البعد عن دم عثمان بن عفان، وهي محاولة منه لتضليل الجمهور المستمع للخطاب، فالقاصي والداني يعلم أن المخالفات الصادرة من عثمان هي السبب في قتله، وفي هذا يقول طه حسين: ((أنظر إلى ما حدث بعد أن مضت أعوام على إمرة

عثمان: ذهب في أموال المسلمين مذهباً مخالفاً لمذهب عمر وسيرته، فأمّا الذين بايعوه على التزام هذه السيرة فيما التزم فقد رأوا أنه خالف عنها ولم يف بالعهد كاملاً))[٤٤].

ولم تغب أحوال عثمان بن عفان ولا أحوال المسلمين في تلك المدة عن معاوية بن أبي سفيان، فهو عارف -بحكم قربه من الأمراء- بحقائق الأمور ومجرياتها، ولكنه في الوقت نفسه لم يبدِ هذه المعلومات والحقائق للمخاطبين واحتفظ بها لنفسه راجياً الافادة منها في سبيل توجيه المخاطبين الجهة التي يرغب بها، فانتقل كلامه من الوقائع الحقيقيّة إلى مراد المتكلّم؛ فعملية التخاطب تحكمها مجموعة من النوايا المقاصد، وهي مقاصد غير صريحة ولا معلنة بين المتخاطبين، كما تحكمها خلفية معرفية مشتركة تجعل عملية التواصل بينهم مستحيلة في ظل غياب جملة من الشروط التمهيدية. لكن هذه المقاصد لا توجه التواصل دائماً، لأننا في مناسبات كثيرة نتجاوز القصد الذي نرمي اليه، وربما نعبر عن أمور لا نقصدها[٤٥].

أما مسلَّمة الملاءمة فتعد قاعدة من القواعد التي يجب أن ترتكز عليها عملية التواصل الإنسانيِّ حتى تحقِّق العمليات التواصلية الغاية المرادة منها. ومقتضى هذه القاعدة عند غرايس هو: «اجعل إسهاماتك في الحوار المتبادل واردة»، وقد تسمى العلاقة أو المناسبة، وتتعلق بالتقيد بموضوع الحوار؛ أي: يجب أن تكون مشاركة المساهمين في الخطاب ليست خارجاً عن موضوع الخطاب[٤٦]. وهو ما نجده في قول عمار بن ياسر في خطبته لأصحابه حينما قال: ((فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلِمتْ لهم دنياهم ولو درس هذا الدين: لم قتلتموه ؟ فقلنا: لإحداثه. فقالوا: إنه ما أحدث شيئاً. وذلك لأنّه مكنهم من الدنيا فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو انهدَّت عليهم الجبال. والله ما أظنهم يطلبون دمه، إنهم ليعلمون أنه لظالم، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرَوْهَا))[٤٧].

يستعرض عمار بن ياسر قضيتين في هذه الخطبة، الأولى: إنَّ سبب قتل عثمان بن عفان هو إحداثه في الدين وخروجه عن سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والقضية الثانية: إنَّ أعداءه أصحاب دنيا، ولا دخل لهم في الدين، وهم لا يطالبون بدم عثمان إنّما همهم الأول هو المكاسب الدنيوية فبعد أن ذاقوا الرياسة والإمارة صار صعباً عليهم أن يعودوا كما كانوا من عامّة الشعب بعيدين عن الترف والجاه والسلطة. وعمار في هذا يجب عليه أن يبرهن صدق قضيته، وهو المؤمن بها والمقاتل دونها، فعمار لم يقل إن عثمان بن عفان أحدث في الإسلام إلا وهو متيقن مؤمن بكلامه صادقاً بينه وبين ربه، فهو لا يحاول أن يخدع الناس في كلامه هذا ولا يحاول أن يستفيد منه سياسياً او عسكرياً، وقد التفت المخاطبون إلى صدق عمار، وأنه لا يقول إلا الصدق حتى وإنْ كان المعلومات التي يستعرضها عمار جديدة لم يكن قد سمعوا بها، وهذا الاتفاق على صدق عمار المتضمّن حمولة معرفية عالية، نابع من قضايا خارج الخطاب تسمّى مقتضيات الخطاب وهي مجموعة من الاعتقادات والخلفيّات المشتركة بين المتخاطبين[٤٨]، لم يخرج عمار عن القضية المركزية للخلاف بين أهل الشام وأهل العراق، وهي دعوة المطالبة بثأر عثمان، وليس اختياره لها موضوعاً أساسيّا في خطبة إلا دليل على أهميتها، فهو يحاول أن يصحح مسار هذه القضية لتنكشف حقيقتها للسامعين، معتمداً على القابليات الشخصية له، وأولاها هي حسن صحبة عمار بن ياسر للنبي والإمام علي وأنه صادق لم يبد منه في يوم ما كذب أو نفاق، فاحتفاظ عمار بن ياسر ببعض التفاصيل وعدم البوح بها، والقاء نتائج الأمور وخواتيمها لم يجعل المخاطبين يشككون بصدقه وبصواب رأيه، وقد بذل جهداً في رفد المخاطب بمعلومات جديدة لأجل توضيح مسار الحرب ومجرياتها، الأمر الذي جعل كلامه متصلاً بسياقه اتصالاً مباشراً، ولا مجال لدخوله

في سياقات أخرى، وقد نجح في خلق مسارٍ تأثيريٍّ في المخاطب، فكلّما ((أنتج القول آثاراً سياقيّة أكثر كان ذلك القول أكثر مناسبة مع مراعاة ما يجب تغييره))[٤٩].

ولربما غابت القضية الثانية عن ذهن بعض جيش أهل العراق، لكنها تظل حاضرة في ذهن عمار وهي نوع من أنواع المقتضيات التي تكون خاصّة بالمتكلَّم فحسب، وهذا من النقاط الأساسيّة التي ركز عليها (قازارد) في مراجعته للتوجه التداولي[٥٠]. وقد أفاد المتكلّم من هذه المقتضيات في إيصال فكرته بناء على صدقه وقدرته على تأكيد كلامه وأقواله، وحضور هذه الاستلزامات في ذهن المخاطب، واستمراريته بالتواصل مع المتكلّم وعدم قطع هذا التواصل بأي حالٍ من الأحوال، دليل قاطع على نجاح المتكلّم في إيصال مراده ومقاصده للمخاطب.

٧- الخاتمة:

١.للسلطة أثر كبير في تشكيل البنية القوليّة وخلق قيمة تأثيريّة عليا فيها؛ إذ هي التي تجعل الكلام مؤثراً فالقول إن صدر من سلطة عليا أثّر في العامّة تأثيراً كبيرا.

٢.صيغ الخطاب الحربيّ صياغة خاصة تتلاءم مع سياقات الحرب التي يحضر فيها الرعب والقلق والرهبة والصعوبة والشدة وغيرها من حالات لا تعترض للمتكلم في غير سياقات الحرب.

٣.ظلّت الخطب الحربيّة تتعرض لقضيتين أساسيتين، هما: أحقية علي بن أبي طالب بخلافة رسول الله، ومقتل عثمان بن عفان، وعمل الخطباء على الافادة من هاتين القضيتين في التأثير بالجمهور.

٤.نجح الخطيب في معظم الخطب الحربيّة في خلق جو تخاطبيّ ناجع، يتواصل به مع المخاطب من دون انقطاع، فعلى الرغم من اختلاف المقاصد والمراد إلا أن المتكلّم استطاع أن يخلق له جمهوراً مصغياً لما يقول؛ وهذه الحالة لا تقف عند الجودة الخطابيّة التي يمتاز بها المتكلّم؛ بل تعود للسياقات المحيطة بالخطاب، كالسلطة السياسية، والمكانة الدينية.

هوامش البحث:

١) لم تكن هذه الأسس في النظر الإسلاميّ واحدة ومتفقاً عليها, ففي الوقت الذي يؤمن به أتباع أهل البيت أن الأساس في الخليفة الوصية من النبي صلى الله عليه وآله وسلم, يؤمن أتباع المذاهب الإسلاميّة الأخرى أن قواعد الخلافة تتم بحسب الظروف المصاحبة للاستخلاف, فنجد اتفاق السقيفة أنتج خليفة, في حين أنتجت الضوابط الموضوعة من الخليفة السابق خليفة آخر, وأنتج الاختيار الشعبي خليفة كذلك.

٢)ينظر: تاج العروس، للزبيدي(ت١٢٠٥هـ)، باب الباء الموحدة، مادة (خ ط ب)، ١/ ٤٧٠.

٣)المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي، مادة (الخاء مع الطاء وما يثلثهما)، ١/ ١٧٣.

٤)هود: ٣٧.

٥)تاج العروس: ١/ ٤٧٠.

٦)تاج العروس: ٢/ ٣٧٢.

٧)المعجم الوسيط: ٢٤٣.

٨)وقعة صفين: ٢٣٤.

٩)وقعة صفين: ٢٣٨.

١٠)الاستعارة في محطات يونانيّة وعربيّة وغربية, محمد الولي: منشورات دار الأمان, الرباط, ٢٠٠٥م.: ٥٧– ٥٨.

١١)وقعة صفين: ٢٣٩– ٢٤٠.

١٢)منطق السلطة مدخل إلى فلسفة الأمر, ناصيف نصّار, دار أمواج, لبنان, ط٢, ٢٠٠١م: ٨–٩.

١٣)البقرة: ٢٥٣.

١٤)وقعة صفين: ٢٩٦.

١٥) الدفاع عن الأفكار: ٣٥.

١٦)الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغويّ, د. عمارية حاكم: ٢٣.

١٧)التوبة: ١٤.

١٨)وقعة صفين: ٣١٤.

١٩)الإعلام الاجتماعي, ميشال لونات, ترجمة: صالح بن حليمة, مراجعة: مصطفى المصمودي, المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم, تونس ١٩٩٣م: ١٣–١٦.

٢٠)وقعة صفين: ٦٤– ٦٥.

٢١)وقعة صفين: ٦٥.

٢٢)وقعة صفين: ٦٦.

٢٣)البلاغة والاسلوبيّة, هنري بليث, ترجمة, محمد العمري: ١٠٢.
٢٤)وقعة صفين: ٩٤.
٢٥)الحجاج الجدلي: ١٤٩.
٢٦)ينظر: آليات الإقناع في الخطاب القرآني (ماجستير): ٦٨.
٢٧)وقعة صفين: ١٩٧.
٢٨)الموافقات في أصول الشريعة, الشاطبي: ٢/ ٢٦٥.
٢٩)ينظر: النص والخطاب والاتصال: ٨١.
٣٠)وقعة صفين: ٢٢٣.
٣١)المشيرات المقاميّة: ٣٥.
٣٢)وقعة صفين: ٢٢٢.
٣٣)ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ٣٧.
٣٤)وقعة صفين: ٢٤١- ٢٤٢.
٣٥)التداولية أصولها واتجاهاتها: ٨٢.
٣٦)ينظر: تلوين الخطاب: ١١٠.
٣٧)ينظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان فيليب بلانشيه: ٦٣.
٣٨)ينظر: القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلر-آن ريبول: ٢١١-٢١٢.
٣٩)ينظر: التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، ص٣٣-٣٦.
٤٠)تبسيط التداوليّة, د. بهاء الدين محمد مزيد: ٤٠.
٤١)وقعة صفين: ٢٨٥.
٤٢)التفسير التداوليّ للنص القرآنّي, مجدي حسين: ٧٠.
٤٣)وقعة صفين: ١٢٧.
٤٤)الفتنة الكبرى: ٤٣
٤٥)التداولية أصولها واتجاهاتها: ١٠٥.
٤٦)التفسير التداولي: ٢١٥.
٤٧)وقعة صفين: ٣١٩.
٤٨)الاقتضاء وانسجام الخطاب, د. ريم الهمامي: ٣٥.
٤٩)القاموس الموسوعي للتداوليّة: ١/ ١٤٧.
٥٠)الاقتضاء وانسجام الخطاب: ٤١.

المصادر والمراجع:

أولاً الكتب:

*الاستعارة في محطات يونانيّة وعربيّة وغربية، محمد الولي، منشورات دار الأمان، الرباط، ٢٠٠٥م.

*الإعلام الاجتماعي، ميشال لونات، ترجمة: صالح بن حليمة، مراجعة: مصطفى المصمودي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٣م.

*الاقتضاء وانسجام الخطاب، د. ريم الهمامي، تقديم: أ. د. عبد الله صوله، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٣م.

*البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص تأليف: هنريش بليت ترجمة: محمد العمري، دار أفريقيا الشرق، ١٩٩٩م.

*تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيديّ الحسينيّ، (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق مجموعة من الأساتذة، طبعة الكويت، تاريخ الطبع ٢٠٠٢م.

*تبسيط التداوليّة، د. بهاء الدين محمد مزيد، القاهرة، ط١، ٢٠١٠ه.

*التداولية أصولها واتجاهاتها، جواد ختام، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط١، ٢٠١٦م.

*التداوليّة عند العلماء العرب، الدكتور. مسعود صحرواي، دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

*التداولية من أوستن إلى غوفمان فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر حباشة، دار الحوار للنشر، سوريا، ط، ٢٠٠٧م.

*التفسير التداوليّ للنص القرآنيّ، مجدي حسين، رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٨م.

*تلوين الخطاب ترجمات في اللسانيات وعلوم اللغة والمعرفة، صابر حباشة، الدار المتوسطية تونس، ط١، ٢٠٠٧.

*الحجاج الجدليّ، عبد الله البهلول، تونس، ط١، ٢٠١٣م.

*الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغويّ، دراسة لسانية تداولية في الخطابة العربية أيام الحجاج بن يوسف الثقفيّ د. عمارية حاكم، دار العصماء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٥م.

*الدفاع عن الأفكار تكوين ملكة الحجاج والتناظر الفكري، د. محمد بن سعد الدكان، مركز نماء للبحوث والدراسات، ط١، بيروت، ٢٠١٤م.

*الفتنة الكبرى، طه حسين، دار المعارف، الطبعة الثانية عشرة.

*في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدكتور. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠م.

*القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلر وآن ريبول، تُرجم بإشراف د. عز الدين المجدوب، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠١٠م.

*المشيرات المقاميّة في اللغة العربيّة، نرجس باديس، مركز النشر الجامعي، جامعة منوبة، تونس، ط١، ٢٠٠٩م.

*المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد الحمويّ، أبو العباس (ت نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية – بيروت.
*المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مجموعة مؤلفين، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٥م.
*منطق السلطة مدخل إلى فلسفة الأمر، ناصيف نصّار، دار أمواج، لبنان، ط٢، ٢٠٠١م.
*الموافقات في أصول الشريعة، أبو اسحاق الشاطبيّ (ت٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ١٩٩٧م.
*النص والخطاب والاتصال، الدكتور. محمد العبد، الأكاديمية لحديثة للكتاب الجامعيّ، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
*وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقريّ (ت٢١٢هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجمل، بيروت١٩٩٠م.
*الرسائل والأطاريح:
*آليات الإقناع في الخطاب القرآنيّ، سورة الشعراء نموذجاً (ماجستير)، هشام بلخير، جامعة باتنة الجزائر، ٢٠١٢م.